

تطور العمائر الاسلامية بتطور وظائفها

بقـم

ر. سعاد ماهر

من الثابت أن الفن الإسلامي التشكيلي قام على أسس من فنون البلاد التي فتحها المسلمون أو خضعت لهم، ذلك أن طبيعة شبه الجزيرة العربية الصحراوية، وانتقال البدو من مكان إلى آخر سمياً وراء الكلاً والرعى لم يكن ليساعد على قيام فنون تشكيلية، اللهم إلا في أطراف شبه الجزيرة، كالمناذرة للتاخمين للدولة الساسانية، والفساسنة المجاورين للدولة البيزنطية، واليمن في الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة. حيث قامت فنون ضارعت فنون معاصريهم من الفرس والرومان.

على أن الفاتح العربي لم يقبل كل ما وجدته من تلك للفنون على ما هو عليه، بل استبعد منها ما كرهه الدين أو مالا يوافق مزاجه الخاص، ثم جمع ما اختاره منها. وصهره في بوتقة بعد أن طبعه بطابعة الخاص، الا وهو الكتابة العربية. وهكذا نستطيع القول أن الفن الإسلامي أخذ قوامه الروحي من وسط شبه الجزيرة العربية، أما قوامه للمادى فقد تم صوغه في أماكن أخرى كان للفن فيها قوة وحياء.

ولعل أبرز فروع الفن الإسلامي التي تأثرت بالجانب الروحي، هي العمارة، التي عني المسلمون الأوائل أن تكون مهمتها الأولى خدمة الدين، ومن ثم فقد تطورت العمائر الدينية تطورا سريعا ساير ركب الحضارة الإسلامية الفتية، فتمددت أشكالها وأساليبها تبعا لتمدد وتغير وظائفها.

وقد بدأت العمارة الإسلامية ببناء المساجد والأربطة في المدارس والمصليات والخوانق والأسبلة والتسكيا. على أننا إذا أردنا أن نتتبع تطور العمارة الإسلامية وجدنا أن المسجد حاجر الزاوية فيها.

ولقد كان أول عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم عند هجرته إلى المدينة هو بناء مسجد للمسلمين في مريد التمر الذي بركت فيه ناقته. وكان بناؤه بداييا بسيطا ، وكانت مساحته ٧٠ × ٦٠ ذراعا وجدرانه من اللبن ، سقف جزء منه بسعف النخيل وترك الجزء الآخر مكشوفًا وجملت عمد المسجد من جذوع النخل .

وقد نهج المسلمون هذا النهج في بناء مسجد البصرة سنة ١٤ هـ ومسجد الكوفة سنة ١٧ هـ ، كما اتبع عمرو بن العاص هذه السنة في بناء مسجده في مدينة الفسطاط سنة ٥٢١ هـ . وكانت مساحته وقت انشائه ٥٠ × ٣٠ ذراعا وجدرانه من اللبن وأعمدته من جذوع النخل وتسوده البساطة . وكانت مساجد البصرة والكوفة ومعمر خالية من المحاريب المحجوفة ومن المنابر والمآذن على غير امسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما أراد عمرو بن العاص أن يتخذ له منبرا في مسجده . كتب إليه الخليفة عمر بن الخطاب يأمره بكسره قائلا له : « أما يكفيك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عتيك » فكسره ، ولم يقتصر اتباع السنة في ذلك الوقت على بناء المساجد فحسب بل تمداه إلى الدور والمنازل ، فقد حدث بعد وقوع الحريق بمدينة الكوفة أن أرسل سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب وفدا يستأذنه في البناء باللبن فقال عمر « افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة آيات (عرف) ولا تطاولوا في البنيان والزمو السنة تلزمكم الدولة » .

وكان المسلمون في العصر الإسلامي الأول يقتصرون على استعمال كلمة المسجد لأما كن العبادة . والمسجد في اللغة هو الموضع الذي يسجد فيه ، فاما اتسعت رقعة الدولة الاسلامية وزاد عدد المسلمين بزيادة من دخل في الاسلام من أهل البلاد التي فتحها المسلمون ، تمددت المساجد في البلد الواحد ، كما تمددت الألفاظ التي تطلق على أما كن العبادة فأصبح هناك مسجد وجامع . والجامع هو نعت للمسجد لأنه مكان اجتماع الناس ويطلق على المسجد الكبير . وفي ذلك يقول المقرئ :

ولما افتتح عمر بن الخطاب البلدان كتب إلى أبي موسى الأشعري وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ، ويتخذ للقبائل مساجد ، فإذا كان يوم الجمعة

انضموا إلى مسجد الجماعة. وكتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك أيضا . فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده ، وكانت صلاة الجمعة تؤدي في المسجد الجامع (١) .

ومن ثم فقد أصبح لفظ الجامع مدلول سياسي في عهد الدولة الأموية فقد عرف بالجامع ، للمسجد الذي يؤم فيه الخليفة أو من ينوب عنه المسلمين في صلاة الجمعة أي أن لفظ الجامع أصبح يطلق على مسجد الدولة الرسمي الذي كان يعرف باسم المسجد الجامع .

وبطبيعة الحال لم يبق تخطيط المسجد على ما كان عليه في عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، بل أخذ يتطور ويساير ركب الحضارة الإسلامية ، فقد رأت الدولة الأموية أن لا تقل مبانيها ، الدينية بصفة خاصة ، قيمة وقدرها عن المعابد المسيحية واليهودية في مصر والشام ومن ثم فقد بنى المسجد الأموي بتخطيط وأسلوب يختلف عن تخطيط المساجد الأولى ، وكان ذلك لضرورة اقتضتها ظروف الدولة الجديدة والشعوب ذات الحضارات والفنون التشكيلية المتقدمة التي دخلت في الاسلام، وأصبحت تكون عناصر هامة في الامبراطورية الاسلامية الناشئة .

هذا ولم تقتصر وظيفة المسجد في المجتمع الاسلامي الجديد على تأدية الصلاة فحسب بل كان يؤدي عدة وظائف أخرى لعل أهمها الناحية الثقافية، ففي أروقته وحول أعمدته تعقد حلقات الدرس والوعظ والارشاد . كما كانت تعقد فيه الجلسات لفض المنازعات الدينية والمدنية ، كذلك كان به بيت المال كما كان الحال في المسجد الأموي وجامع عمرو ، وفيه كان جلوس متولى الحسبة . من هذا يفهم أن المساجد في العهد الأموي وأوائل العصر العباسي، على أقل تقدير كانت تمثل دور الحكومة في مفهومنا الحديث ، إلى جانب وظيفتها الأساسية الدينية. وبديهي وقد أصبح المسجد يؤدي خدمات ووظائف متعددة تختلف باختلاف الشعوب والبيئات أن تمتدد الأساليب المعمارية في بناء المساجد، وإن اتخذت جميعها مقومات العمارة الاسلامية وجوهرها . فقد كانت معظم المساجد حتى القرن الرابع الهجري تحتوي

على صحن مكشوف تحيط به الأروقة من ثلاث جهات أو من جهتين على أن يكون أكبر الأبنية هــ ورواق القبلة لأهميته كما احتوى كل مسجد على محراب ومنبر ومئذنة وفي كثير من الأحيان على ميادة .

أما تخطيط المسجد ، فكان غالباً مربعاً في العراق وإيران ومستطيلاً في مصر والشام وشمال أفريقيا . وتعليل ذلك سهل ميسور ، فأما كن العبادة السابقة على الإسلام في بلاد ما بين النهرين كانت ذات تخطيط مربع ونفى بها (الاتش جاه) أى بيت النار ، أما في غرب العالم الإسلامي حيث كانت تسوده المسيحية فكانت كنائسهم معظمها ذات تخطيط مستطيل .

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى بدأت تظهر في شرق العالم الإسلامي أسماء جديدة لأنها كن العبادة عرفت بالمدارس ، ثم انتشرت في غرب العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجرى وهذا التغير في الاسم لا بد وأن يكون لحكمة اقتضتها الوظيفة الجديدة أو الدافع المباشر .

كذلك صاحب التغير في الاسم تغيرات جوهرية في التخطيط الممارى . وقد اختلف علماء الآثار والمؤرخون في وظيفة المائر التي عرفت بالمدارس ، ولعل أقربها تلك المناقشة الحادة التي دارت في الندوة العالمية لألفية القاهرة حول هذا الموضوع . وهو هل كانت المدارس في أول نشأتها تؤدي وظيفة المدرسة أو هو مجرد تشابه في الاسم لا في الوظيفة . لذلك رأيت قبل أن أتكلم عن نشأة المدرسة ووظيفتها أن أذكر شيئاً عن أنواع الثقافات التي عني المسلمون بها في العصور الوسطى . ونستطيع أن نجمل هذه الثقافات في قسمين كبيرين ، الأول ويشمل دراسة علوم الأقدمين ، وقد أطلق عليها العرب إسم علوم الأوائل ، وتشمل الرياضة والطبيعة وعلم الفلك والطب والفلسفة وعلم الديانات وما إليها وكانت تدرس في عمارت تسمى (دارالعلم) أما القسم الثاني من الثقافة فيشتمل على العلوم الاسلامية التي تقوم أساساً على القرآن وما جاء فيه من أحكام والحديث النبوى ، ومن هذين المصدرين لشعبت دراسات أخرى دينية وقضائية واجتماعية .

ومدينة نيسابور هي أول مدينة إسلامية أطلقت كلمة مدرسة على (دار العلم) وكان ذلك في عهد محمود الغزنوي في القرن الرابع الهجري ، وقد أنشئت المدرسة البيهقية والسعيدية ومدرسة أبو سعيد الأسطرابلي ومدرسة أبو إسحاق الأصفهاني (١) المتوفى سنة ٤١٨ هـ . وقد ظلت هذه المنشآت عمائر محمية مدة خمسين عاماً ثم قضى عليها تماماً بعد قتل وزير طغرل بك ، إلا أنها بنيت من جديد على يد نظام الملك أعظم (٢) رجل تولى الوزارة في عهد السلاجقة قاطبة ، يل وأعظم وزراء الشرق في عصره ، فقد ظل وزيراً لثلاثة من السلاطين هم طغرل بك وألب أرسلان وملك شاه . وقد استطاع بثاقب فكره وبعد نظره أن يستفيد من هذه المنشآت الثقافية والدينية في نشر المذهب السني ومناهضة المذهب الشيعي ، وهكذا أصبحت المدارس منشآت عامة بعد أن كانت خاصة ، يتخرج فيها الموظفون الذين يتولون إدارة الشؤون الادارية وما إليها في دولة السلاجقة .

وقد أنشأ نظام الملك كثيراً من المدارس الأولى منها في نيسابور وذلك في منتصف القرن الخامس الهجري وأعقبها في بغداد وطوس والبصرة وأصفهان وهرات وبلخ (٣) وقد حذا حذوه كثير ممن خلفه من السلاجقة وانتشرت المدارس في كل الولايات السلجوقية .

وما فعله نظام الملك في إيران وجنوب العراق فعله الأتابكة في الموصل ودمشق وفعله نور الدين وصلاح الدين في شمال العراق وسوريا . وهكذا نرى هؤلاء الأمراء ذوى الأصل الكردي أو المنغولي والمتعصبين للمذهب السني ، هم الذين نشروا المدارس في غرب العالم الاسلامي .

نخلص من هذا أن الشيعة هم أول من أنشأ المعابر الثقافية التي كانت تعرف من قبل باسم دار العلم ، كما أنهم أول من أطلق عليها إسم المدرسة ، والفرض الأساسي

(1) L. Mass guou: Ler Nedreneh de Bagdöel (B I , F A O) ual, VII P P 78 - 9

(2) F q Brown: Literary History of Pers : a, vol II pp 175-214

(3) Van Berchom: (C I A) Egypt p p 25 - 60

من إنشائها هو تدریس ونشر المذهب الشیعی . وكان ذلك في القرن الرابع الهجری .
إبان حکم محمود التزنوی . وفي القرن الخامس الهجری نشر الأمراء الأکراد والنول
ذووی المذهب السنی هذه المدارس في غرب العالم الإسلامي كما جماعها منشآت عامة
تشرف عليها الدولة على خلاف مدارس الشيعة الخاصة في القرن الرابع الهجری .

وما قيل عن العالم الاسلامی عامة يمكن أن يقال عن مصر خاصة ، فکما نشأت
المدارس في شرق العالم الاسلامی على يد الشيعة ، على أنها معاهد خاصة ، نشأت
في مصر على يد السنين كماهه خاصة كذلك . فقد جاء في ابن میسر (١) أن الوزير
رضوان بن الوخشي أنشأ مدرسة في الاسكندرية سنة ٥٣٢هـ نشر المذهب الشافعی .
ويقول ابن خلكان (٢) أن ابن سلاار وزير الخليفة الفاطمی الظاهر انشأ مدرسة
سنة ٥٤٦هـ في الاسكندرية كذلك . ويذكر القلقشندي (٣) أن مسرور أنشأ مدرسة
سنية بالقاهرة في عهد الدولة الفاطمية ، فلما جاء صلاح الدين إلى مصر نشر هذه
المنشآت التنافية وجماعها عامة بعد أن كانت خاصة من قبله . وكان غرضه الأول من
ذلك هو القضاء على المذهب الشیعی مذهب الفواطم وذلك بنشر المذهب السنی عن
طريق المدارس .

أما عن التخطيط المعماری للمدرسة فمن الثابت أن التخطيط الأول كان عبارة
عن إيوان واحد في الضلع للمواجه للقبلة أما الأضلاع الثلاثة الأخرى فكانت تحتوي
على غرف للطلبة وذلك لأن المدارس كان معظمها مخصصة لمذهب واحد ، فقد أحصى
كرزويل ثمانين مدرسة في سورية بينها ٣٣ مدرسة مخصصة للمذهب الحنفي و(٣١)
المذهب الشافعی وتوسع للحنابلة وواحدة للمالكية ومن بينها ست مدارس للمذهبيين
هما الشافعية والحنفية .

أما عن مدارس مصر فقد أمدنا المقریزی بمعلومات على جانب عظیم من الأهمية
فقد أحصى عدد المدارس الموجودة حتى عصره في القرن (١٥) وتبلغ (٧٢) مدرسة
وقد قام الأستاذ كرزويل بترتيبها ترتيباً زمنياً ، ودرس الموجود منها حتى الآن
فتبين له أن المدارس الأولى كانت ذات إيوان واحد لأنها كانت مخصصة لمذهب
واحد . وأول مدرسة خصصت لمذهبيين كانت المدرسة الفاضلية التي أنشأها

(١) ابن میسر : نشر ماسيه Massé ص ٨٣

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ ص ٤٣ ، ج ٢ ص ١٣ ، ١٤

(٣) القلقشندي : صبحی الأعشى ٣ ص ٣٥٦

صلاح الدين سنة ٥٨٠ هـ المذهب والمالكي والشافعي، وذلك بعد بناء المدرسة الأُسدية بـ أول مدرسة خصصت لمذهبيين قسورياسقت مصر بائق عشرة عاماً. وتعتبر المدرسة الكاملية المبنية سنة ٦٢٢ هـ والتي ما تزال باقية، وأن كانت في حالة خربة ، أقدم مدرسة ذات أيوانين باقية حتى الآن . وبما يؤيد أن المدرسة الكاملية كانت تحتوى على أيوانين فقط، أن الجانب الشمالى الشرقى من المدرسة يشغله الآن حمام يعرف باسم حمام السلطان وطى خريطة الحملة الفرنسية يعرف باسم حمام يبصارى الذى حل محل قصر الأمير يبصارى الذى يرجع تاريخ إنشائه إلى سنة ٦٥٩ هـ .

والمدرسة الصالحية التى أنشأها الصالح نجم الدين سنة ٦٣٩ والتي احتلت جزءاً من قصور الفاطميين ، إذ يقول المقرئى أنها تقع بحى بين القصرين فى القاهرة وأنها من جملة القصر الكبير الشرقى ، وهى مع احتوائها على أربعة أيوانات للمذاهب السنية الأربعة إلا أن تخطيطها يعتبر فى الواقع تكراراً للمدرسة ذات الأيوانين إذ أنها تتكون من مجموعتين تفصل بينهما حارة الصالحية الآن ويجمعهما مدخل المدرسة الرئيسى الذى تعلوه المئذنة .

وكان المقرئى دقيقاً فى وصفه للمدرسة إذ يقول عنها :

فبنى الملك الصالح نجم الدين أيوب هاتين المدرستين ، فأبتدأ بهدم موضع هذه المدارس فى قطعة من القصر فى ١٥ ذو الحجة سنة ٦٣٩ وفى سنة ٦٤١ هـ رتب فيها دروساً أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة وهو أول من عمل بمصر دروساً أربعة فى مكان واحد ، ودخل فى هذه المدرسة باب القصر المعروف بالزهومة وموضه قاعة شيخ الحنابلة الآن .

والجزء الباقى من هذه المدرسة هو المجموعة الجنوبية التى تتكون من أيوانى الشافعية فى الشرق والمالكية فى الغرب أما المجموعة الثانية التى تتكون من أيوان الحنفية فى الشرق وأيوان الحنابلة الذى حل محل باب الزهومة فى الغرب فقد بنيت

هكاتها مجموعة من الحوائت وأن كانت واجهه المجموعة ما تزال موجودة وبجمللة
لا باس بها .

وتمتبر المدرسة الصالحية أول مدرسة في مصر ذات أربعة أيوانات ولكنها
ليست متعامدة كما أنها ليست أول مدرسة في العالم الإسلامي درست المذاهب الأربعة،
فقد سبقتها المدرسة للمستنصرية (١) في بغداد بعشر سنوات والتي خصصت للمذاهب
الأربعة بالإضافة إلى دارين أحدهما للحديث وأخرى للقرآن ، أى للقراءات السبع .
وبرغم تخصيص هذه المدارس الأربعة إلا أن تخطيطها غير متعامد كما أنها لا تشبه
تخطيط المدرسة الصالحية .

على أننا نستطيع القول بأن أول مدرسة في مصر احتوت على أربعة أيوانات
متعامدة هي المدرسة الظاهرية التي بناها السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى سنة
٦٦٢ هـ وتمت في سنة ٦٦٢ هـ وتشغل قاعة الحليم وباب الذهب من القصر الشرقى
الكبير (٢) . وللأسف لم يبق من هذه المدرسة غير إيوان واحد هو الإيوان الجنوبى
الشرقى وبه المحراب وكتلة من الواجهة مساحتها ١١ × ٥ متراً ملاصقة لضريح
الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بسوق النحاسين شارع المعز لدين الله الآن
(الصاغة) . فقد تهدمت المدرسة سنة ١٨٨٢ عندما شق طريق بيت القاضى وقد
ترك لنا المقرزى من التفاصيل الدقيقة ما يؤيد ما ذهبت إليه بحوث الأثريين في
القرن العشرين فهو يقول . وجلس أهل الدروس كل طائفة في إيوان، منها . الشافعية

Massignon : Le Medraseh de Bagdad P.80 & Herzfeld :
Archaologische Reise im Euphrat und Tigrisgebiet II.P.161. & Creswell:
Origin of the Cruciform Plan of Cairere Madrossas .P.36.

(٢) المقرزى ج ٤ ص ٢١٦ (طبعة النيل) .

بالإيوان القبلى . والحنفية بالإيوان البحرى . وأهل الحديث بالإيوان الشرقى والقراء
بالقراءات السبع بالإيوان الغربى » .

على أن أول مدرسة خصصت للمذاهب الأربعة فى مصر وذات تخطيط متعامد
هى المدرسة الناصرية . وهى تقع بجوار القبة المنصورية، فى شرقها كان موضعها حماما
فأمر السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى بإنشاء مدرسة موضعه .
فأبتدىء فى وضع أساسى وارتفع بناؤها عن الأرض إلى نحو الطراز المذهب الذى
بظاهاها فلما خلع كتبغا وعاد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة
للمرة الثانية سنة ٦٩٨ هـ . فأمر بأتمامها فأكملت سنة ٧٠٣ هـ . وإلى هذه المدرسة
نقلت واجهة كنيسة بعا كان قد استولى عليها السلطان الأشرف خليل بن قلاوون
سنة ٦٩٠ هـ . ونقلها إلى القاهرة الأمير علم الدين سنجر الشجاعى (١) .

وإذا جازلنا أن نقول أن المدارس إنما إنتشرت فى مصر فى العصر الايوبى لمحاربة
المذهب الشيعى ونشر المذهب السنى . فإن تصميم مدرسة السلطان (٢) حسن بن محمد
ابن قلاوون التى بدأ إنشاؤها سنة ٧٥٧ هـ يدل دلالة واضحة على أنها إنشئت بقصد
الثقافة والعلم بالإضافة إلى الدعوة إلى السلطان . وتتكون المدرسة من أربعة إيوانات
متعامدة تحيط بالصحن خصصت للمذاهب الأربعة وبجانب كل من الإيوانات
الأربعة مدرسة .

وتبلغ مساحة المدرسة الحنفية على سبيل المثال ٨٩٨ متراً مربعاً . ويتكون تخطيط
المدارس الأربعة جميعها

من إيوان وصحن تتوسطه فسقية ثم طبقات بعضها فوق بعض تشرف على صحن
المدرسة وعلى الواجهات . وقد قرر السلطان حسن لهذه المدارس مدوسين

(١) المنونى ج ٤ ص ٢٢٢ .

(٢) هرتس ناشا : تاريخ جامع السلطان حسن ص ١٥ .

ومراقبين وعين لهم مرتبات (١). كما قرر لكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخاً ومائة طالب وعين طبيين أحدهما باطنى والآخر كحال محضران كل يوم بالمسجد لمداواة من يحتاج إلى علاج من الموظفين والطلبة . ورتب ثالثاً جراحاً . وقد أُرصد في وقتيه مرتبات الأساتذة والطابة والموظفين وقيمه ما يصرف لهم من المأكل كل ليلة جمعة وما يصرف لهم في الأعياد .

وهناك رأى للدكتور أحمد فكري، لم يسبق إليه خاصاً بوظيفة المدرسة ، وقد جاء في البحث الذى تقدم به سيادته للندوة العالمية وموضوعه خصائص عمارة العصر الايوبى ، فقد أثبت أن وظيفة المدرسة الرئيسية لم تكن هى التدريس فحسب . فقد كانت المساجد تتخذ للتدريس منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وذلك فى مسجد قباء . وفى مصر كانت الدروس تلقى فى جامع عمرو وفى الجامع الطولونى والأزهر والحاكم . بل أن وظيفة المدرسة الرئيسية فى العصر الايوبى كانت إعداد أماكن ملحقة بموضع التدريس لسكنى طبقة مختارة من المدرسين والطلاب . وإنى إذ وافق أستاذنا الدكتور أحمد فكري على ما ذهب إليه من الناحية المعمارية وهو أن المساجد الجامعة التى كانت تلقى فيها الدروس على أقل تقدير منذ القرن الثانى للهجرة . لم تكن فيها أماكن لسكنى المدرسين والطلاب . وأنى أرى أن السبب الأساسى فى نشأة العمائر التى عرفت باسم المدرسة لم تكن فى الواقع القصد منها إيجاد أماكن للمدرسين والطلبة . وإنما يرجع إلى عامل سياسى دىنى مذهبى « القصد منه هو نشر المذهب المخالف لمذهب الدولة الرسمى متخذين من اسم المدرسة ستاراً يتسترُونَ وراءه . فالمدرسة البيهقية والسعيدية ومدرسة أبواسحق الاصفرانى التى أنشئت فى عهد محمود النزنوى فى القرن الرابع الهجرى فى نيسابور كان القصد منها نشر المذهب الشيعى المناهض لمذهب الدولة العباسية السنى . كما أن إطلاق اسم

(١) المخطط التوفيقية ج ٤ ص ٨٤ .

المدرسة على تلك العماير التي أنشئت في مصر في عهد الدولة الفاطمية في القرن الخامس الهجري على يد الوزير رضوان بن الولخش وابن سلال في الاسكندرية وابن مسرور في القاهرة لنشر المذهب السني كان القصد منه مناوأة مذهب الدولة الفاطمية الشيعي . فلما جاءت الدولة الايوبية بعد دولة الفواطم وجدت في هذه المنشآت للمسماة بالمدارس بيتها في نشر المذهب السني والقضاء على المذهب الشيعي ، فاكثرت موح بنائها حتى بلغ ما أثنى من المدارس في العهد الايوبي أربعة وعشرين مدرسة في القاهرة واثنين في الفيوم ، وجعلت منشآت عامة بعد أن كانت منشآت خاصة في العهد الفاطمي . ثم أخذت في تطوير عمارتها حتى أصبحت تفي بكل مطالب المدرسة من صلاة وتدريس وإيجاد أماكن للدارسين . وقد اكتمل التخطيط المعماري للمدرسة في العصر المملوكي ومن أحسن الامثلة لها مدرسة السلطان حسن بن محمد ابن قلاوون سنة ٧٥٧ هـ .

ومن العماير الدينية الهامة عند المسلمين الخاناتاوات التي انتشرت في القرن الرابع للهجرة جملة لا بواء الصوفية قبحا للعبادة . أما عن نشأة التصوف فيذكر المقرئزي (١) نقلا عن أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، أن المسلمين بعد رسول الله لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لافضيلة فوقها فقيل لهم الصحابة ولما أدرك أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابه التابعين ، وقبل لخواص الخواص ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد . وانفرد خواص أهل السنة المراعون انفسهم مع الله باسم متصوف واشتهر هذا الاسم قبل المائتين من الهجرة وغلبت التسمية على هذه الطائفة فيقال رجل صوفي وللجاعة الصوفية .

وهناك رأي آخر في نشأة التصوف في الاسلام يورده المقرئزي ولكنه لا يفسره

(١) المقرئزي ج ٤ ص ٢٧١

قال : « المتصوفون ينسبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم » ورأى ثالث قال : « أنه من الصفاء » .

أما عن المهامة مبان لسكنى هؤلاء المنتظمين ، فإن أول من اتخذ بيتا للعبادة زيد بن صوحان بن صبرة وذلك إنه عمده إلى رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة وليس لهم تجارات ولا غلات فبنى لهم دوارا وأسكنهم فيها وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس وغيره .

وهناك نرى أن عمائر الزهاد نشأت منذ القرن الأول للهجرة ولكنها انتشرت في شرق العالم الاسلامي في القرن الرابع ، أما في مصر فقد انتشرت المباني المخصصة لإقامة الزهاد المنتظمين للعبادة الذين عرفوا بالتصوفين في العصر الأيوبي ، فقد أنشأ صلاح الدين الأيوبي أول دار لهم . وقد عرفت هذه الدور في مصر كما عرفت في مشرق العالم الاسلامي باسم الخانقاة أو الخانكة . وهي كلمة فارسية معناها البيت وقيل أصلها خوئقاة أى الموضع الذى يأكل فيه الملك . وعرفت خانقاة صلاح الدين باسم الخانقاه الصالحية وهي بخط (١) رجة باب الميد من القاهرة وكانت أولا دارا تعرف في الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء . فلما تولى صلاح الدين ، عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من خارج البلاد ووقفها عليهم في السنة تسع وستين وخمسمائة ورتب لهم معاشهم .

وتبين من الفقرة السابقة التي أوردتها للمقرئى ، أن خانقاه الصالحية كانت عبارة عن دار فاطمية قديمة اتخذت دارا للصوفية وبذلك نستطيع القول أن الخانقاة وجدت في العصر الأيوبي أما اتخاذ تخطيط مमारى خاص بها فلم يظهر إلا في العصر المملوكى . ولعل أقدم الامثلة لها وأكملها الخانقاة التي بناها ركن الدين بيبرس الجاشنكيرى قبل أن يسلى السلطنة وهو أمير ، فبدأ في بنائها سنة ٧٠٦ هـ وبني بجانبها رباطا كبيرا

يتوصل إليه من داخلها وجعل بجانب الخاتمة قبة لكي يدفن بها . ومن جملة شبائيك القبة كما يقول القرظي الشباك الذي حمله الامير أبو الحارث البساسيري من بغداد لما غلب الخليفة العباسي القائم بأمر الله ووضع بدار الوزارة الفاطمية ودمر فيها إلى أن عمر ببيرس الخاتمة المذكورة فجعله بالقبة .

وتقع الخاتمة بحى الجمالية وهى من جملة دار الوزارة الكبرى وتبلغ مساحتها خداناً وثلاث فدان . وتتكون الخاتمة من صحن على جانبيه الشرق والغرب ايوانان معقودان وهى فى ذلك تشبه المدارس ذات الايوانين . أما الجانبان الآخران فقد أنشئ بهما خلوات للصوفية بعضها فوق بعض .

ومن المماز التي انتشرت فى العصر الايوبى الاضرحة التي أخذت شكلاً معيناً وهو مربع منطى بقبة . على أن اقامة الاضرحة ليست حدثاً فى العصر الايوبى ، فقد أقامت الدولة الفاطمية كثيراً من الاضرحة وقصرتها على أهل البيت وكبار رجال الدولة من الشيعة مثل السيدة نفيسة ورقية وعاتكة والجعفرى وبدر الجمالى وعرفت بالمشاهد، أسوة بما أطلق على أضرحة الأئمة من العلويين . فلما جاءت الدولة الأيوبية رأت أن تحول الانظار عن اضرحة الشيعة وذلك ببناء أضرحة لأئمة السنة ، فأقامت أم السلطان الملك الكامل قبة الامام الشافعى سنة ٥٠٨هـ واجرت عليها الماء من بركة الحبش ومنذ ذلك الوقت أقبل الناس على بناء مفاير موتاهم بجوار الامام الشافعى وعرفت تلك المنطقة بالمجاورة بالقرافة الصغرى . ويعتبر ضريح الامام الشافعى اكبر الاضرحة فى مصر على الاطلاق وأقدم قبة خشبية بمصر وذلك إذا استبعدنا الاضرحة الملحقة بالمدارس والخانات ، إذ تبلغ مساحته ٤٠٠ متر مربع تقريباً وارتفاعه ٢٩ متراً . ومن الطريف أن قبة الامام الشافعى يعلوها عشارى طولها متران ونصف وقد اختلف المؤرخون والاثريون فى تفسير وجود العشارى فوق القبة ، فقال البعض أنها أعدت لوضع الحبوب للطيور والبعض الآخر قال أنها رمز على أن الامام الشافعى بحر فى العلوم والمعارف اعتماداً على قصائد

الشعر التي احتوت هذا المعنى والتي تذكر منها بعض أبيات من قصيدة البوصير صاحب
البردة :

بقية قبر الشافعي سفينة رست في بناء محكم فوق جلود
ومذ غاض طوفان العلوم بقبره استوى الملك من ذلك الضريح على الجودي
وقال أبو الفتح موسى بن ملهم في القرن الرابع عشر :

مررت على قبة الشافعي فعاين طرفي عليهم المشاري
فقلت لصحي لا تمجبوا فان المراكب فوق البحار

على أني أرى يا لاضافة إلى المعنى السابق أنه يريد بالاضافة إلى وصفه بالعلم بأنه
بحر العلوم والمعرفة أنه لا يقال عن أئمة الشيعة ، الذين قصر الفواطم لفظ الامامة
عليهم درجة ومنزلة .

ومن الاضحة الهامة في العصر الايوبي ضريح السادات الثمالة ، والخلفاء
العباسين وضريح شجر الدر ، ثم ضريح الصالح نجم الدين أيوب الذي يمكن اعتباره
أول ضريح الحق بمدرسة . ثم أصبحت الناعدة بعد ذلك الحاق القباب بالمدارس
والمساجد والخانقاوات .

أما في العصر العثماني فقد اختلف تصميم المساجد اختلافا كبيرا عن العمار الدينية
السابقة فلا هو تصميم مسجد ولا هو تصميم مدرسة . وهنا لا نستطيع القول
أن الوظيفة هي الدافع في تمييز تخطيط المساجد العثمانية ، بل هو دافع سياسي
أرادت به الدولة العثمانية صبغ الولايات التابعة لها بتبعية فنية لتأكيد التبعية السياسية.

فقد اتخذ العثمانيون من طراز المصليات السلجوقية في القرن الخامس الهجري
ساسا لعمارهم الهامة (١) . وكان قوام التخطيط العثماني هو القبة الكبيرة المبنية من

(١) نجد وصفا مفصلا لمصلى (Barsiyan) بإرسيان بالقرب من أصفهان للمقدس

في كتابه احسن التقاسيم .

الحجر عادة وتحيط بها من جميع الجهات فيما عدا جهة القبلة أيوانات محمولة على
 كتاف تماوها قباب منخمة . ومن أحسن الامثلة لذلك مسجد سنان باشا ومسجد
 محمد علي بالقلمة الذي يعتبر نسخة من مسجد السلطان أحمد باسطنبول .

ومن المأثر الدينية الأخرى في العصر العثماني غير المساجد ، التكايا التي حلت
 محل الخانات في العصر العثماني إذ أنها تؤدي نفس الوظيفة أي أنها خاصة باقامة
 المنقطعين للمعبدة ولسكنها تطورت بعد ذلك وأصبحت خاصة باقامة العاطلين من
 العثمانيين الوافدين على البلاد ، ومن هنا قيل عنها أنها مأوى (تنابلة السلطان) ، أي
 الكسالى الذين لا عمل لهم . أما من حيث التخطيط فهي مجموعة من الطرز والأساليب
 المعمارية فهي أساسا تشبه تخطيط المنزل الاسلامي ذي الصحن المتسع وتوجد بالدور
 الأرض مجموعة من الايوانات والقاعات المنسمة ومسجد . وبالادوار العليا توجد غرف
 ظلمبيت ثم يلحق بالتكسية مطبخ ودورات مياه ومنزل لشيخ التكسية .